

البلاغة والاجتماع

هل البلاغة صورة الاجتماع؟ وهل يصح أن تتخذ حركة الكتابة من شعر ونثر دلالة على حياة الأمم الاجتماعية، وعلى مجموع صورة الاجتماع من أفكار وعقائد، وتصورات وخيال، وذكاء ودقة فى الفهم، وحمول فى القريحة، أو على ما فى الأمم من ميل إلى الجلد وإلى اللهو، وما فى النفوس من قوة وضعف وإرادة، وعلى اختلاف الأذواق وفهم الجمال، ثم على العادات وغير ذلك، مما يدل على شىء من التاريخ والأخلاق القومية؟

قال بعض الفلاسفة الاجتماعيين: " يلاحظ أنه حصل منذ هو مروس تقدم تدريجى فى الكتابة والشعر. حتى لقد يمكن أن نعتبر البلاغة صورة للاجتماع، فقد مرت بأطوار كثيرة، وأنواع من الموضوعات الساذجة الخاصة بالأفراد، إلى الأنواع العامة، وتطرفت إلى الموضوعات الشريفة التى يمكن أن تمثل الجمهور " أى بعد أن كان الكاتب أو الشاعر لا يتكلم ولا يكتب إلا عن نفسه وعيشتة الخاصة، أخذت الكتابة تتسرب إلى الموضوعات الاجتماعية شيئاً فشيئاً، حتى انتقلت من وصف الأشخاص إلى وصف الجمهور والمجتمع. وقالوا طريقة الكتابة والتعبير تدل على نفس الكاتب وحقيقته. يريدون أن الأفكار بنفسها مع أسلوبها تدل على صاحبها. وقالوا بعد ذلك إن البلاغة صورة الاجتماع. يريدون أن ما يوجد من الأفكار فى الكتابات من نظم ونثر يمثل الحالة الاجتماعية، ولا سيما الفكرية منها. وقالوا إن القوانين والنظامات أثر من آثار الرجال. أما البلاغة فتمثل شخصيات الأمم. يريدون أن الكتاب الاجتماعيين يمثلون دائماً فى كتاباتهم الحالة الاجتماعية للأمم، ويظهرون فيها

مجموع الأفكار ومجموع العادات السائدة فى ذلك الوقت ، لأن هذه الكتابات إنما تمثل أشخاصاً ، وتصور أفراداً من المجتمع ، ومحور الكلام أو مغزى البلاغة يكون دائراً حول جماعة من بيئة خاصة ، فهى تمثل هذه البيئة . وأخلاق الكتاب والشعراء التى تبدو فى كتاباتهم ، إنما هى حالة من أحوال البيئة التى يعيش فيها هؤلاء الكتاب ، فهم جزء من مجموع الجمهور الذى يعبرون عن حالته ، ويسمعنا صرير أقلامهم صوته .

وعلى ذلك فالحركة الكتابية هى نفس الاجتماع بما فيه ، أى صورة أصلية للأمم ، وحقيقة من الحقائق الثابتة ، تمثل كل ضروب الحياة ، وحركات عقول الأفراد من علماء وأدباء وفنيين وفلاسفة وغيرهم .

ويمكننا نحن أن نضرب لذلك مثلاً بالشعر العربى مدة الدولة الأموية من الهجاء والمدح ، وانقسام الشعراء إلى أحزاب سياسية كل يمثل رأياً من الآراء السائدة فى ذلك الوقت ، وانقسم الشعراء إلى علويين ينصرون آل على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وإلى أمويين يؤيدون سياسة بنى أمية وغير ذلك .

وهل يكون أدل على الحرية فى ذلك الوقت من قول النعمان بن بشير وقد دخل على معاوية أمير المؤمنين يؤنبه على هجو الأخطل الأنصار :

معاوى إلا تعطنا الحق تغترف	لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
ويشتمنا عبد الأرقام خلة	وماذا الذى تجرى عليك الأرقام
فما لى ثأر غيرهم قطع لسانه	فدونك من يرضيه منك الدارهم
وإنى لأغضى عن أمور كثيرة	سترقى بها يوماً إليك السلالم
فما أنت والأمر الذى لست أهله	ولكن ولى الحق والأمر هاشم

فهذا الشعر يصح أن يكون صورة صحيحة من صور الحياة إذ ذاك
ويصح أن يدل على حرية الشعب مدة خلافة معاوية. ومثل ذلك يقال في
العادات والأخلاق، كقول امرأة رزقت بنتاً فغضب عليها زوجها وهجرها إلى
بيت قريب منها، فكانت تناغى ابنتها بالأبيات الآتية:

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالزراع لزارعينا

نبت ما قد زرعه فىنا

فهذا أيضاً يدل على ضرب من المعاملات، وعلى أحوال الاجتماع،
وعلى ما للمرأة من رقة الأخلاق ولين الجانب. قالوا ولما سمع زوجها هذا
النشيد هم بتقبيلها هى وابنتها، فكان ذلك سبباً لرجوعه إلى زوجته. ومثل
ذلك يقال فى الأشعار الدالة على الكرم والشجاعة والعشق وغيرها.

قال أصحاب هذا المذهب إن "أمثال" (١) لافونتين الشاعر الفرنسى
الشهير "وأخلاف" لابرويير (٢) الكاتب النقدى، تدل دلالة تامة على حالة
الاجتماع فى القرن السابع عشر فى فرنسا، وعلى زمن لويس الرابع عشر
وحاشيته، لأن لوفونتين مثل الأشخاص فى صور حيوان، ولا برويير ذكر فى
"أخلاقه" صور الذين كانوا يعيشون فى ذلك الزمن، بما لهم من الأخلاق،
والعادات فكأنما رسم الاجتماع والزمن اللذين كان يعيش فيهما، كما يرسم
المصور لوحته بالألوان ويبين فيها مميزات الشخص.

(١) اخترنا أن نطلق "الأمثال" على ما يسمونه "Fables" لأنه أظهر فيه.

(2) (Caracteres) La Bruyere

وعندنا نحن من الأمثلة على ذلك، ما يقرب من هذا فى البلاغة المصرية " حديث عيسى بن هشام " لمحمد بك المويلحى، فإن فيه رسماً للحياة والأسر فى مصر على اختلافهما فى زمن من الأزمان. وهو من أفضل الكتب التى يصح الاعتماد عليها فى معرفة الحياة المصرية الحاضرة وفى معرفة الأفكار والأخلاق والعادات والمنتشرة عندنا والفضائل والردائل السائدة فىنا^(١).

وكان من رأى جماعة من الأدباء أن القصص والروايات تصح أن تكون منبعاً من منابع التاريخ، ومرجعاً من مراجعه، لأنك تجد فيها كل أشكال الناس: ففيها الطفل والشاب، والجندي والحاكم والمالى والشئيف والسياسى بميزاتهم وأخلاقهم النفسية والاجتماعية، وبأشكالهم الحقيقية فقد أخذت الكتابة شكلاً علمياً تاريخياً، وصارت البلاغة كتراجم لأشخاص ونفوس اجتماعية، لأفراد خاصة معينة، أو بعبارة أخرى، أصبحت الكتابة تمثل أخلاق المجتمع، وتكشف حقيقته، كما أن العلوم يتوصل بها إلى تقرير الحقائق، كدرس طبيعة حيوان، أو صفة عامة فى فصيلة من فصائل النبات.

هل أصحاب هذا الرأى محقون؟ وهل يؤخذ هذا الكلام على علاقته؟ وهل الأشخاص الذين نراهم فى جوف القصص، وفى بطون الحكايات لهم صورة أصلية فى الخارج؟ وهل أوصافهم وأعمالهم ووظائفهم حقيقة من الحقائق الثابتة؟ إذا بحثنا فى ذلك بحثاً دقيقاً وجدنا أن هناك فرقاً ظاهراً، وأحياناً مخالفة واضحة بين بعض الكتابات البلاغية، وبين البيئة التى نبتت

(١) مثل هذه الكتابة هى التى نوهنا عنها فى افتتاح محاضراتنا. وقلنا أننا نريد أن تكون لنا آداب مصرية، تمثل حالتنا الاجتماعية، لتكون لنا شخصية ظاهرة فى بلاغتنا وكتاباتنا، وليعرف القراء منها فى أى مكان وفى أى زمان كتبت.

فيها وخرجت منها. وسبب ذلك أهواء الكاتب الشخصية وأغراضه النفسية، أو تأييد فكرة يعمل على إثباتها ويبالغ في تقديسها.

ذلك لا يظهر في الآداب العربية ظهوراً واضحاً، لأن بلاغة العرب محصورة، أو تكاد تكون محصورة في الشعر، والشعر لا يمثل حالة الاجتماع تمثيل النثر له، لضيق المجال فيه، لأنه لا يسع جميع الأفكار ولا يحتمل إظهار الحقائق كما ينبغي، لما فيه من القوانين التي يجب على الشاعر اتباعها. وكثيراً ما تضطره إلى ذكر ما لا يلزم أو حذف ما يلزم، فالشاعر لا يجد في شعره الحرية المطلقة التي يجدها الناثر في نثره. ولأن الشعر رغم كل شيء مبناه الخيال والمبالغات. والصناعة الشعرية كثيراً ما تضطر الشاعر اضطراراً لاتباع أهوائه، خصوصاً الشعر العربي لأنه أكثر الشعر رونقاً وبهاء. وأشدّه ارتباطاً بالنغمات الموسيقية، والموازين والألفاظ الضخمة، والاستعارة والتشبيه والمجاز^(١).

فجمال الشعر العربي في الصناعة. وهو كذلك عند جميع الأمم، خصوصاً الشعر الوجداني، فإنه يكاد يكون مبنياً على ذلك فحسب. فكيف يستدل بالشعر على الحقيقة، وقولهم "إن الشعر ديوان العرب، به أخلاقهم وعاداتهم وأنسابهم وحروبهم" ليس معناه أن الشعر يصح أن يكون دليلاً من أدلة التاريخ العام. فإذا روى أحد الشعراء قصة فلا يصح أن تؤخذ على أنها

(١) قال ابن رشيق في "كتاب العمدة": وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره. فإن لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ. أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له الأفضل الوزن (ص ٧٤ ج ١).

حقيقة من الحقائق الثابتة، كما فى كتب التاريخ، وإلا لصح أن تعتبر الأساطير الشعرية "والأمثال" حجة تاريخية، ولم يقل بذلك مفكر لأن كل الشعر اليونانى القديم خرافى، وكل ما فيه من الآلهة والحروب خرافى أيضاً، وربما لم يحصل شىء مطلقاً من هذه الحروب، بل من المحقق أن أشيل وأغمنون وإلهة الشعر التى نزلت من السماء، أشخاص خياليون، والقصة نفسها خيالية. بل قالوا إن هو موروس نفسه شخص خرافى لا أثر له فى الحقيقة. فكيف تكون هذه الأشعار ومثلها دليلاً على حالة الاجتماع وعلى حياة الأمم دلالة تاريخية؟ وهل يصح أن نصدق بوجود الأشخاص الذين وجدوا فى أشعار الجن عند أدباء العرب؟ وأن تكون قصة "ألف ليلة وليلة" صحيفة صادقة من صحف التاريخ الإسلامى؟ أو صورة صحيحة من صور الحياة الاجتماعية فى بغداد ومصر وغيرهما؟ لا نزعم أن كل ما بها ضرب من الكذب أو الافتراء، ولكن الإنسان يرى من أول وهلة أن بها مبالغات هى أثر الكتابة الخرافية، والأساطير الأدبية وأثر الصنعة، فيها أشخاص معروفون، فيها ملوك وأمراء، فيها نساء وحكام، ولكن أوصافهم أو أشخاصهم غير حقيقية. وربما كان هذا الكذب الصاعى هو الذى يحمل القارئ أحياناً على استمرارها. والاسترسال فى قراءتها. لأن الأشياء التى هى غير مألوفة، كثيراً ما تعجب الإنسان، وترضى النفس التى تحب الخداع، وتميل إلى الانتقال وتحب التغيير، خصوصاً عندما يكون فيها من الأفكار والخيالات ما يحرك عواطف الشاب، ويعجب الشيوخ والكهول. وكثيراً ما يكون تشويه الحقيقة فى الفنون داعياً من دواعى الإعجاب. لماذا يعجبنا أن نرى صورة مشوهة، ذات رأس ضخم على جسم صغير لا يمكنه أن يتحمل هذا الرأس؟ أليس ذلك لأنه غريب عنا، بعيد عما نراه من الحقائق، محرك فىنا حب

الاستطلاع؟ كذلك الحال في جميع الفنون. غير أن هناك نوعاً من الفنون التي تدخل في باب الحقائق، وتجعلها سائغة على النفس خفيفة الروح، سهلة القبول. فإن صورة يصورها المصور لإنسان، لا يمكن أن تكون غيره، ولكن ربما اقتضت الصناعة أن يضع على رأسه العمار بشكل خاص، أو أن يغير من شكل ملابسه أو لونها بعض التغيير، أو أن يجعل ارتفاع "طربوشه" مثلاً ارتفاعاً مناسباً لما يريد، أو أن تقضى الصناعة وضع ثلاثة أو أربعة أزرة في ملابسه، وهو لم يحمل إلا اثنين مثلاً. هذه التفاصيل لا تغير من حقيقة الشخص نفسه، غير أنه لا وجود لها. كذلك الحال في الشعر والنثر. ففي أشعار العرب ما يدل في مجموعته على أخلاقهم، كالكرم والشجاعة وعدم احتمال الضيم، إلى غير ذلك مما ورد في شعرهم. ولكن لا يمكن أن ندرس إنساناً دراسة تامة في شعره. نعم قد يستدل من كتابات الرجل على شيء من أخلاقه. ويمكننا أن نعرف إن كان الشاعر عاقلاً أو مجنوناً، كما يمكننا أن نعرف إن كان مخطئاً أو مصيباً في أفكاره. ولكن هل يصح أن نحكم على إنسان بالشجاعة لأنه مدح الشجاعة؟ أو نقول إنه كريم لأنه مدم الكرم؟ لدينا الآن من يصف السيف والرمح، ويمدح الشجاعة والموت في سبيلها، وهو لا يعرف أن يقبض على السيف، وتهتز فرائصه خوفاً إذا هم إنسان بضربه بيده لا بسيفه. وكم من شاعر وصف الخمر وهو لم يشربها، ومدح التقوى وهو لم يعرفها.

وقد يكون للكاتب أو الشاعر رأى خاص، يريد أن ينشره أو يعمل على تأييده، ورأيه غير معروف في البيئة التي يعيش فيها، أو معروف عند القلة. فإن قصص بول بورجيه "Laul Bourget" القصص الفرنسي بها نزعة دينية

كتوليكية لأنها تدعو إلى الكنيسة الكاثوليكية وإلى مذاهبها. وتعمل على تأييد ذلك. وأنطول فرانس "Ana ole France" المعاصر له رجل فيلسوف ملحد. قصصه مملوءة بالهزئ والسخرية ما العالم ومن الأفكار الدينية، وكلا الكاتبين يكتب وينشر أفكاره الخاصة، في نفس البيئة التي ينشر فيها الآخر أفكاراً تخالفها. فأيهما يصح أن يكون قلمه وأفكاره دليلاً على البيئة التي يعيش فيها؟ هذا يدل على نزعات فردية، وعلى مجتمعات وأفكار خاصة، لا على الأمة أو حالة الاجتماع العام. اللهم إلا في الكتابة العلمية، أو في مذهب الحقائق "Realisme" الذي من غرضه إظهار الشيء كما هو. على أن ذلك لا يخلو من بعض المبالغة أحياناً، ومن الصناعة التي تضطر الكاتب إلى الخروج عن الحقائق.

وعلى كل حال فلا يصح أن تعتبر البلاغة دليلاً صحيحاً على الزمن والأشخاص الذين ظهرت بين ظهرانيهم، أو أن تكون أثراً تاريخياً.

نعم لا تكون الكتابة من الأدلة التاريخية لأمة من الأمم. لأن الكاتب لا يقصد من وضع قصة تمثيلية لحادثة تاريخية تمثيلاً خالياً من الزيادة والنقص، ولكنه يريد إظهار رأيه وإثباته في قصته وهذا ما يدور عليه محور التمثيل. ولذلك يعمل على إظهاره بأى شكل كان، وبأى وسيلة كانت. هذه الزينة التي توجد على المسارح من ستائر وأثاث وألوان وأضواء، هذه الملابس والحركات والأشكال، قد تكون غيرها في الزمن الذي وجدت فيه القصة وربما لا تشبهها، كالكلام الكثير والمناظر المختلفة التي لا تكون من القصة في شيء، ولكن المؤلف يريد أن يعجب الحاضرين، وينال من نفوسهم بهذه المظاهر ليتوصل إلى إثبات فكرته، أو إلى نشر حقيقة بهذه الوسائل. كل ذلك

لازم تقتضيه قواعد الفن وتستلزمه الرغبة فى الإعجاب . ولذلك كثيراً ما يغير أصحاب الفنون مناظر القصة التمثيلية إلى غيرها، لأنهم يرون ذلك أوفق وأدعى للجمال، ولأن الفنون ليس من غرضها البحث عن الحقائق. ذلك يرجع إلى الفلسفة والعلوم. إنما غرض الفنون إظهار الجمال.

هذا مثل ضربناه لأن الصناعة فيه أظهر، وعدم اتباع الحقيقة فيه أبين، والجرى وراء أهواء الكاتب فى إظهار البراعة فيه أوضح، لأنه مبنى على المشاهدات. ومثل ذلك يقال فى أنواع النثر والشعر. وهل مثل قول ابن كلثوم:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

يدل على حقيقة؟ وهل هذه كانت حالة الاجتماع فى ذلك الزمن؟ هذا من باب الفخر والحماية وجمال القول والمبالغة، أو من التهاون بالحقائق لاقتضاء الصناعة ذلك. كل ما يمكن أن تدل عليه البلاغة من نظم ونثر، وقصص وحكايات وروايات تمثيلية واجتماعية، هو مجموع الحركة الفكرية للأمم، والصورة العامة للميول والأهواء للمجتمع، وشئ من حركة النفوس والعقول، وبعض الأخلاق والعادات التى يمكن أن تأخذ من بطون هذه الصحف.

وقد قال بعض النقاد إن الحالة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من البلاغة نفسها. أى أنه يمكن أن يعرف الإنسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها. لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه، فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب. وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه على

المجتمع الذى يعيش فيه . نضرب لذلك مثلاً بحالة القصص الاجتماعية الآن : كثير من هذه القصص يمثل طبقات الناس تمثيلاً غير حقيقى . يمثل المرأة أو الفتاة فى حالة من الأخلاق لا يرضاها لها إنسان ، خصوصاً فى موقف الحب والغرام ، كما هى الحال فى القصص التمثيلية . فلو لم تظهر آراء النقاد ما فى هذه الكتابات والأفكار من المبالغات ، واعتمد كل إنسان على ما يقرأه فى أخذ الحقائق منها ، لامتلأت نفسه خطأً من الحكم على المجتمع . وكما هى الحال للأجانب الذين يصفون البلاد من بطون الكتب لا غير ، كالقصص والروايات ، ويحكمون عليها بناء على ذلك . لهذا قيل إن الحكم على البلاغة نفسها هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئاً من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ويوازن بينها ، ليستخلص منها صورة صحيحة من الحالة الاجتماعية . فقد يجد أفكاراً متناقضة مختلفة فى عصر واحد ، لأن كل إنسان له رأى ، فإن لم يكن هناك تمييز بين هذه الأفكار فبأيها يحكم القارئ؟ وعلى أى اجتماع يكون حكمه صحيحاً؟ وماذا تكون الحال إذا حكمنا على زمن الرشيد بشعر أبى نواس وأمثاله ، وحكمنا على الشعراء بمثل هذه الأخلاق؟ وأبو نواس يكاد يكون وحيداً فى بابه مع أصحابه . كما قال حمزة بن الحسن الأصبهاني جامع ديوان أبو نواس :

"وقد خص شعر أبى نواس ممن لهج بإضافة المنحول إليه بما ليس فى غيره من الأشعار ، وذلك أن تعاطيه لقول الشعر كان على غير طريقهم ، لأن جل أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث ، كأشعاره فى وصف الخمر ولغة النساء والغلمان . وأقل أشعار مدائحه ، وليس هذا طريق الشعراء الذين

كانوا فى زمانه، وكانوا من بعده، فأبو نواس فى توفره على الهزل بإزاء
عمران بن حطان وصالح بن عبد القدوس فى توفرها على الجد الصريف".
هذا معنى أن آراء النقاد هى صورة الاجتماع أكثر من البلاغة نفسها.
وجملة القول أن كل ما يصح أن يؤخذ من البلاغة هو الحالة العامة للأفكار،
وطريق سيرها فى زمن من الأزمان، حتى فى البلاغة الحقيقية التى تنشر
الحقائق بدون زيادة ولا نقص. لأنه ليس الغرض منا تقرير الحقائق، بل
عرض صورة الشئ عرضاً إجمالياً، وبث العبرة والعظة. كما إذا وصف
الكاتب رجلاً قذراً، رث الثبات حافى الأقدام، فإنه لا يصفه لذاته، وإنما
يصفه لإظهار النفس الكامنة فيه. وكما نجد فى الكتابات الحديثة الآن أثناء
الكلام على شخص من الأشخاص، وصف حجرته، وما لديه من الأثاث
وغيرها. كل هذا للتوصل للحكم على الرجل وعلى نفسه. فإذا أردت أن
تثبت عن أمة من الأمم فإنك لا تجدها فى بلاغتها. وإنما تجد فى بلاغتها
أذواقها وأنواع ميولها.
